امرأة بيضاء

رجـــل خمريّ

أمل جميع

امرأة بيضاء
رجل خمريّ

مجموعة قصصية

قنديل | Qindeel
للطباعة والنشر والتوزيع

A White Woman, A Reddish Brown Man

Amal Jamea

(Series of Stories)

امرأة بيضاء.. رجل خمريّ

أمل جميع

مجموعة قصصيّة

© 2019 Qindeel printing, publishing & distrubtion

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب، أو نقله على أي نحو، و بأي طريقة، سواء أكانت إلكترونية أم ميكانيكية أم بالتصوير أم بالتسجيل أم خلا ف ذلك، إلا بموافقة الناشر على ذلك كتابة مقدماً.

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر

موافقة « **المجلس الوطني للإعلام**» في دولة الإمارات العربية المتحدة
رقم: **MC-10- 01-5464683** تاريخ **2019/10/20**

ISBN: 978 - 9948 - 36 - 915 - 8

قنديل | Qindeel

للطباعة والنشر والتوزيع

Printing, publishing & Distribution

ص.ب: 47417 شارع الشيخ زايد

دبي – دولة الإمارات العربية المتحدة

البريد الإلكتروني: info@qindeel.ae

الموقع الإلكتروني: www.qindeel.ae

© **جميع الحقوق محفوظة للناشر** 2019

الطبعة الأولى: تشرين الأول / أكتوبر 2019 م – 1441 هـ

أُنجزت هذه المجموعة القصصية بإشراف

القاص إسلام أبو شكير

في إطار برنامج دبي الدولي للكتابة

المحتويات

على درب المعرفة 11

استكانة 13

أم أحمد 23

أمل على حرف 29

امرأة بيضاء.. رجل خمري 33

غفوة 41

ليلة 47

كان حبيبي 53

على درب المعرفة

استمراراً على نهجها الذي خطته لنفسها، يسر **مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم للمعرفة** أن تخرج لعشاق الكتاب والمعرفة حصيلتها الجديدة من ثمار برنامج دبي الدولي للكتابة، بفئات الترجمة والقصة القصيرة وأدب الطفل، التي خرَّجت أقلاماً نفخر بأنهم نهلوا من الخبرات التي أهَّلتهم ليأخذوا مكانهم ومكانتهم في قائمة الكتَّاب، ويثروا المكتبة العربية بنتاجاتهم الأدبية، حيث أضحت هذه الدورات مفتاحهم لولوج عالم الكتابة الإبداعية.

لم تكن بداية **برنامج دبي الدولي للكتابة** إلا خطوة أولى عزمت المؤسسة من خلالها على الوصول إلى الهدف المنشود، وهي تتطلع بكل ثقة إلى أنها ستنتج أفضل الثمار، وها هم منتسبو البرنامج يفخرون بخلاصة معارفهم وهي تلبي شغف القراء، وتشق طريقهم الإبداعي لصقل أقلامهم، لتكون هذه الإصدارات أول قطرات الغيث التي ستحمل، بلا ريب، وابلاً من الإصدارات اللاحقة، أسوة بمن سبقهم من خريجي دورات البرنامج، الذين أضحى عدد منهم خبراء ومستشارين، وحصدت مؤلفاتهم جوائز مرموقة.

لقد خضنا التحدي بكل اقتدار، وحققنا جزءاً من أهدافنا محلياً وإقليمياً؛ ونحن نتطلع من خلال الدعم اللامحدود الذي يوليه لمبادراتنا سمو الشيخ أحمد بن محمد بن راشد آل مكتوم، رئيس المؤسسة، أن نخدم المعرفة وطلابها، ومبتغانا في ذلك أن نحقق تطلعات قيادتنا الرشيدة التي تجاوزت الحدود لتحمل همَّ الأمة العربية والإسلامية من خلال سعيها الدؤوب لاستثمار عقول شبابها ومواردها البشرية ليحققوا النهضة لأوطانهم ويكونوا يد بناء وارتقاء ونماء.

لا يسعنا، ونحن نخرج ما في جعبتنا من جديد البرنامج، إلا أن نتوجه بأعمق الشكر والتقدير لكل من أسهم في نجاح المبادرة بمخرجاتها وفئاتها؛ إذ لا يمكن لمشروع بحجم برنامج دبي الدولي للكتابة أن يبلغ ما بلغه إلا بالتكاتف والتعاون المشترك، ونخص بالذكر المشرفين والمدربين الذين لم يبخلوا بمعارفهم وتجاربهم وخبراتهم، ليثروا بها معارف المتدربين الذين أثبتوا جدارتهم وأصروا على خوض تجربتهم الإبداعية بكل عزم وإصرار.

جمال بن حويرب

المدير التنفيذي

لمؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم للمعرفة

استكانة

ـ صباح الخير حبيبي.. صباحية مباركة.

استيقظ من النوم، وعلامات الدهشة والذهول على وجهه. نظر إلى الكنبة. ثمّ نظر إليها.

ها هي ذي تجلس على كرسي التسريحة الأبيض الصغير. تنهي المرحلة الأخيرة من زينتها. شعرها الحالك المستسلم لأسنان المشط يتأرجح خلف ظهرها المستقيم، بينما أطرافه تدغدغ الكرسي، وعطرها يتسلّل إلى أنفه مختلطاً بالبخور.

أزاح عنه اللحاف الوثير المزركش بقوة. أيقظ هاتفه المندسّ تحت الوسادة. جر أقدامه إلى الحمام. الماء يترقرق في البانيو، وفقاقيع تكسو سطحه. لا فوط مرمية على الأرضية القاحلة. لم يبحث طويلاً عن فرشاة الأسنان. أدوات النظافة

جاهـزة ومرتبـة.. هـه، ومـاذا عسـاها تفعـل غيـر هـذا؟ النسـاء لا يأتيـن إلا بالعيـن الحمـراء.

ـ ألـو. هـلا. هـلا. صبـاح الخيـر حبيبتـي. اشـتقت إليـك. كيـف؟ نعـم. نعـم. ولكـن. أنـا أفهمتهـا كلّ شـيء مـن البدايـة. لـم أضـع عليهـا خنصـراً حتـى. لا تقلقـي. أعدك بـأن أرتـب الأمر. هي مسـألة وقـت فقـط. أعطينـي فرصـة. هـذا القلـب لا يشـغله غيـرك. أنـت تعرفيـن أمـي. ومـن أيـن سـأصرف عليـك إن رفضـت؟ أقصد علينـا. أف. لا بـد أن أراك اليـوم. نعـم اليـوم. أنـا سـأتصرف. قلـت سـأتصرف.

تبعت ذلك قهقهات، وغزل، ووعود.

طأطـأت رأسـها وهـي تعـرك يديهـا. وقفـت تتفـرّس فـي ملامـح وجههـا. تضاريسـه. وتقـاوم ارتجـاف دمعـة فـي عينيهـا تسـتعد للانسـكاب كلمـا رشـقتها كلماتـه المتسـللة مـن بـاب الحمـام المـوارب.

خـرج مـن الحمـام. لوهلـة قطـب جبينـه ريبـة، وأخـذ ينقـل بصـره بيـن ذات الشـعر الحالـك وثيابـه المسـتلقية على السـرير. انفرجـت شـفتاه عـن ابتسـامة خبيثـة مـلأت صـدره زهـواً، ثـم التمعـت عيناه. تنـاول الثيـاب، رفعهـا إلـى أنفـه، التفـت إليهـا، تبسـمت.

ـ أهلـك فـي انتظارنـا، سأسـبقك حتـى تنتهـي مـن ارتـداء ملابسـك، الغتـرة معلقـة بجانـب البـاب.

مـا الـذي دهـا هـذه المـرأة؟ بالأمـس تكوّمـت بفسـتانها علـى الكنبـة غارقـة الوجـه بالدمـوع، بـل كانـت شـهقاتها تصـم أذنـي حتـى نمـت. مـا كلّ هـذا؟ الحمـام. السـرير. الملابـس.. ومـا كل تلـك الأناقـة التـي صبّحتنـي بهـا؟ هـه!

نزلـت إلـى بهـو المنـزل. جمـع غفيـر أنيـق اسـتقبلها بزغاريـد وقبـل وأحضـان محفوفـة بالأغانـي، فأهرقـت دمعـةً خجولـةً مـرّةً علـى كتـف والدتهـا، ثـم نكسـت رأسـها فـي حـزن دارتـه سـريعاً بملامـح حاولـت أن تعبـر عـن الخجـل، أو مـا يشـبهه.

ـ بسم الله. خيراً يا حبيبتي. هل أنت بخير؟

اكتفت بإيماءة من رأسها.

ـ طمئنيني عليك يا بنتي. هل أحزنك سلطان في شيء؟

ـ لا يـا حبيبتـي، اطمئنـي، أنـا بخيـر.. انظـري إلـي؛ فقـط اشـتقت إليكـم.

وتبادلتا الضحكات..

فـي الهزيـع الأخيـر مـن الليـل، دخـل عليهـا الغرفـة مكفهـراً؛

انتزع وسادة على السرير، نزع اللحاف الوثير المزركش من فوقها. فزعت، تأملها برهة، سوّى الوسادة على الكنبة، نفض اللحاف، استلقى، أخذ جهاز التحكم بالتلفاز. تقلب بين محطات كثيرة. استوقفته أغنية.. تناول هاتفه الذكي.

رنين..

رنين..

رنين..

استوى جالساً في مرقده، يتمتم في غضب، وينظر إليها.

ـ أنت السبب، أنت السبب، سأريك.

أعطته ظهرها. غطت وجهها الحانق الباكي، وهو لا يزال يكتب الرسائل، ويعاود الاتصال.

استيقظ. كان التلفاز لا يزال يعمل بصمت. نبش عن هاتفه الذكي؛ لا رسائل، لا مكالمات فائتة، كل شيء في الغرفة على حاله، كما كان حين استيقظ بالأمس؛ إلا هي، لعلها أخذت أسمالها، وذهبت إلى حيث لا رجعة. أف!

تسمر على عتبات السلم المذهّب الملتف المؤدي إلى البهو الواسع الناضح بالفخامة. يكاد يخنق الدرابزين بقبضته..

إنها هنا. تجلس بقرب أمه وأختيه. تحتسي شاي العصر معهنّ، وتلتهم الحلويات. تجلس وقد لفّت ساقاً على ساق. بكامل أناقتها. تخبئ ـ بأنامل ناعمة تتهادى بروية ـ ما هرب من خصل شعرها خلف أذنها بعيدة مهوى القرط. تسوّي (شيلتها). تبزغ كالشمس في وقوفها. ترفرف كالفراشة من مقعد إلى آخر. تتناول الأطباق من أيدي العاملات، تقدمها لأمي، ما الذي يسعدها؟

ـ أهلاً سلطان.. تعال يا حبيبي.

ـ عذراً أمي، أنا مستعجل، لدي مشاغل.

ـ تعال لنتناول الشاي معاً، علام العجلة؟

ـ ...

جلس بالقرب من أمه محنيّ الظهر يسند ساعديه على فخذيه، وقد شبك بين أصابعه. تهادت إليه في سحابة عطرة. مدت بانحناءة طفيفة يدها المزركشة بالحناء، لتقدم له كوباً من الشاي وصحن حلوى.

هسيس أساور..

ـ تفضل، بالعافية.

ـ شكراً.

احتسى الكوب برشفات عالية لعلها تبدد سحابة العطر، وتسكت هسيس الأساور.

ـ منذ متى وأنت تشرب الشاي بقلة ذوق كهذه يا ولد؟

ـ أنا مستعجل يا أمي، أراكم لاحقاً، مع السلامة.

ـ انتظر قليلاً، يا لهذا الجيل العجول! خذ، ولا تتأخر، أنت رجل متزوج الآن.

***

إنها الرابعة فجراً. التلفاز لا يعمل. والفراش المزركش الذي أعدته له على الكنبة لا يزال مرتباً. ولا ملابس متكومة بالقرب من الكنبة والسرير. كل ما هنالك ظلّ عكسه على السجادة الأعجمية؛ الضوء الخافت لغرفة تبديل الملابس، والهمس المدجج بالرجاء، بالتوسل، بالحجج التي طردت النوم من عينيها.

ـ هند.. هند.. هند..

ـ ...

ـ صباح الخير.. أو.. لا أدري.. مساء الخير.

– ...

ـ اسمعي يا بنت الحلال. ما جرى جرى. زواج وتزوّجنا، والكلام الذي قلته لك في ليلة الزفاف خرج من قهري. تخيّلي؛ أنا رجل، وأتزوج لأن أمي قررت ذلك. تخيلي؛ حتى إنها لم تشاورني. ولكني.. لم أكن أعلم أن لأمي ذوقاً جميلاً إلى هذا الحد.

– ...

ـ انظري، مسحت كل الأرقام من هاتفي، حتى الصور؛ مللت منها ومن كثرة طلباتها. وبيني وبينك، كنت أريد أن أغيظك فقط، لعلك تغضبين، تطلبين الطلاق وأرتاح. هي تركتني عموماً. تريد مني تطليقك مقابل أن تعود إلي. وأنت يبدو أنك بنت أصيلة؛ تربيتك عظيمة، وجميلة.. جداً.

– ...

ـ عموماً.. أنا صارحتك بكل شيء حتى أتخلص من الماضي. تعلمين، طيش شباب، دعينا من اليوم نفتح صفحة جديدة؛ ننسى البدايات الغبية، وكأننا تزوجنا الآن.

ـ انتظر.. لدي شرط واحد فقط.

ـ اطلبي ما تشائين، أي شيء.. لك ما تريدين.

ـ لحظة. اليوم بعد الوليمة، أريدك أن تخبرهم جميعاً، أهلي وأهلك، عن طيش الشباب، وعمّا قلته لي في ليلة الزفاف، وأن تبدي الندم، وعن أنك حاضر لأيّ طلب أطلبه منك، وستنفّذه فور طلبي إياه.

ـ فقط؟ هذا ما تريدين؟ حاضر.

ـ لحظة.. لحظة.

ـ ستفعل هذا أمام الجميع.

ـ وأمام الدنيا كلها.

ـ من فضلك، قلت لك لحظة.. وبعد أن تفعل ما طلبت سأطلب أنا، ثم لك أن تفعل ما تشاء.

ـ حسناً.. اليوم، اليوم، هل أخبرتك من قبل بأنك جميلة؟

ـ ...

***

يقف سلطان وسط البهو الناضح بالفخامة. في يده (استكانة) شاي كرستالية مذهبة. يقف تماماً أمام أمه وزوجه. وتتحلق العائلة من حوله، يتناولون الحلويات، ويحتسون الشاي والقهوة، وهي تجلس منتصبة الظهر. إبهامها يفرك

سـبابتها. بينمـا انطلـق هـو يتلفـظ بكلمـات كالتـراب.

أخـذ الـكل مـن حولـه ينظـر أحدهـم إلـى الآخـر، ثـم انبجـس لغـط، وعلـت الأصـوات، وتداخلـت، وهنـد فـي صمتهـا ترمـق سـلطان الملتمـع العينيـن المنتفـخ الصـدر، وتترقـب.

ـ كفـى.. وهـا أنـذا أمامكـم، وأمـام هنـد، أطلـب الصفـح منهـا، لنبـدأ صفحـة جديـدة. وأنـا مسـتعد لتلبيـة أي طلـب يرضيهـا. مـن مئـة ألـف إلـى مليـون. وأنـا أعدهـا، وأعدكـم، أن تعيـش معـي معـززة مكرمـة مـن بعـد هـذه اللحظـة.

وقفـت، عبّـت مـا اسـتطاعت مـن الهـواء، شـمخت، تبختـرت إلـى حيـث يقـف سـلطان. لمعـة تتـلألأ فـي عينيـه. والاسـتكانة الكرسـتالية بشـايها المعطـر بيـن شـفتيه.

ـ طلّقني.

أم أحمد

يشق صوت صراخ كل ذلك السكون القاتم فجأة، فتنتفض. تفتح عينيها برفرفة بطيئة. يباغتها الضوء الساطع، فتغمضهما من جديد.

طنين منتظم التقطع يتسلل عبر العتمة المستبدة، يبدد ذلك الصمت الرابض على كل شيء.

زَفَرَت:

ـ آه..

وانسلت دمعة من عينيها المغمضتين بإحكام، ثم زلزل صدرها نشيج مكتوم، وانبعث صوت من خلف أبواب ذكرياتها السحيقة:

ـ صه.. قطع الله حسك.

فلاذت بالسكون مرةً أخرى، وتمتمت:

ـ أحمد.

فتسارع الطنين، وسمعت ما بين صحو وإغماءة صوته ينادي:

ـ سستر.. سستر.

وضع يده على رأسها. أمسك بمعصمها وهمس:

ـ لماذا فعلت هذا بنفسك يا أمي؟

ليتها تشدّ على يده الآن، وتطمئنه، وتعتذر!

* * *

ـ أمي.. أمي..

تفتح عينيها الرطبتين. البياض المشوش يلف كل شيء حولها. تنظر يميناً، ثم إلى الأمام؛ إنهم هنا: أحمد، وزوجته معكرة الملامح، و.. حصة.. حصة.

ـ أمي.. الحمد لله على سلامتك.

نظرت إلى وجه حصة. كم طال غياب هذا الوجه عنها! كم تشتاق إليه! لم تسعفها يداها وهي تحاول لمّ وجه حصة بينهما، ولا رأسها أسعفها، ولا حتى قدماها!

غابت عن الوعي فشرعت الذكريات أبوابها من جديد، فرأته في بقعة ضوء، ووجهه القريب جداً ناضح بحمرة غضب، منتفخ الأوداج، يصرخ، يشوح بكلتا يديه.. اهتزت في مرقدها. استيقظت. لعله جاثوم هذا الذي يمنعها من النهوض. قرأت في سرها أذكاراً وسوراً من القرآن، حتى استسلمت للنوم من جديد. كانت تضاريس وجه حصة المضطربة آخر ما أغلقت عليه عينيها.

وتفتحت أبواب الذكريات السحيقة من جديد. رأت الوجه ذاته، لكنه كان طفلاً في الثامنة، يتوارى خلف الباب المتخلخل العاري، وعيناه المتسعتان تتابعان يدي رجل شاهق وهما تشقان الهواء صعوداً، ثمّ تهوي إحداهما تلو الأخرى بتوالٍ لم يمنع الرجل من مواصلته سوى شدّة تلاحق أنفاسه، وهي في مربضها تتلقى اللكمات وتكتم آلامها بإصرار، وتدلق توسلاتها تحت قدميه بسخاء.

وما إن جر الرجل ـالذي يقطر عرقاً وشتائمـ قدميه خارجاً من المنزل حتى هرع الطفل إليها ملقياً قلبه المرتعب في حضنها؛ فتضمه، ثم تتبعه أخته، فتضمهما، وتقول وهي تصارع الآه والعبرة:

ـ لا تخافا؛ أنا بخير، لا تخافا؛ أبوكما غاضب فقط، وكل شيء سيكون على ما يرام.

وكان كل شيء بعد ذاك اليوم على ما يرام؛ مات أبو أحمد على يد صاحبه في جلسة أنس، وتفتحت لأم أحمد أبواب، وتغلّقت أبواب، حتى كبر أحمد، وكبرت حصة.. حصة!

ـ أمي.. أمي.

فتحت عينيها، فترقرقت منهما دمعة ساخنة ثقيلة، مسحتها حصة الجالسة على يمينها، وأحمد يوليها ظهره، ويقف مكتوف اليدين، يتحدث إلى الأطباء، ويلتفت بين الفينة والأخرى، ينظر مرةً إلى حيث ترقد أمه، ومرة إلى زوجه، وحصة تلتفت إليه، ثم تعاود النظر إلى أمها، وعلى وجهها بقايا ابتسامة مبتورة، وتعصر أصابعها المتشابكة، وتنفث في تنفسها أنفاساً سريعة طويلة!

تدور مقلتا أم أحمد في محجريها:

ـ ما الذي يجري؟ ما بالها حصة؟ من ضايقها؟ ماذا يريد الطبيب من حبيبي أحمد وزوجه؟

أطبقت أم أحمد عينيها، وتفتحت أبواب الذكريات من جديد.. فها هي زوج أحمد تتأفف من طعم الطعام، تتشبث

بكتف أحمد، تبكي زوراً وتتمتم، تشير إلى أم أحمد، ترفض ذهاب أم أحمد في صحبتهما. تهزّ وتنفض ثياباً قذرةً في وجه أم أحمد. وها هي أم أحمد ترفع يدها إلى عنان الوجع، ثمّ تهوي بها على وجه زوج أحمد.

تفتح الممرضة الستارة البيضاء المزركشة. تراقب الأجهزة الموصولة بأم أحمد. تسجل بعض القراءات. تفتح أم أحمد عينيها.. تبتسم الممرضة.

ـ صباح الخير، كل شيء على ما يرام، حان وقت تبديل الملابس، ثم سنناولك الإفطار. سنتركك ترتاحين قليلاً، ثم سنصحبك إلى بهو الدار، لدينا اليوم جدول حافل بالنشاطات؛ سنقضي يوماً ممتعاً. على فكرة ضيفة جديدة ستشاركك الغرفة اعتباراً من الغد، اسمها حصة.

ـ ... وأحمد؟

أمل على حرف

تسللت إلى أذني همهمة امتزجت بدبيب أقدام. فتحت أجفاني الثقال. أرخيت جفني عينيّ هرباً من هذا السطوع. شيئاً فشيئاً فتحت عينيّ على وسعهما. وجدتني ملقاةً على سرير مرتفع، ولحافٌ شديد النظافة يلفني. أنابيب أمصال معلقة قرب رأسي. سقف مستعار مثقب الألواح يعلوني. ستائر خضراء باهتةٌ متهدلةٌ تحيط بي. ورائحةٌ سئمها أنفي تملأ الهواء.

إنها الرائحة ذاتها التي تنتشر في أرجاء كل المستشفيات، حيث أهرقنا المال والعمر قرباناً لأملٍ لم يترك لنا من صبرنا إلا فتاتاً؛ أسأل الله ألا يتناقص وأنا أضع يدي على رحمي.

اختلجت في صدري عبرة، نفرت دموعي، وغرقت في بكاء صامت تفلتت منه شهقةٌ وخزت قلب زوجي الواقف خلف الستائر. ضوء عيني غانم، أربعة عشر عاماً مضت على

هـذا الـزواج ولـم ييـأس المتكهنـون بعـد مـن رمـي تكهناتهـم العتيقـة الثقيلـة الشـائكة علـى مسـامعي بيـن الحيـن والحيـن. أجـل؛ فأنـا مـا زلـت بـلا جـاهٍ يليـق بمقامهـم، وبـلا أطفـال.

أطـلّ غانـم مـن بيـن السـتائر بابتسـامة ذات وهـج. كـم اشـتقت لرؤيتهـا مـرة أخـرى بعـد المـرة الأولـى فـي غرفـة التصويـر فـي قاعـة عرسـنا! أطلـق وهـج وجهـه ذاك، وقـد امتـلأت عينـاه بالدمـوع، ألـف ألـف سـؤال تدافعـت فـي رأسـي، ثـم اكتظـت فـي عينـي، فصحـت بـه:

ـ ما الخطب؟

تساقطت دموعه على جبيني، وهو يقبله.

ـ أنت حامل.

صرخت:

ـ يا الله.

ـ سـلموا إلـيّ نتائـج التحليـل. سـأكحل بهـا أعيـن المتكهنيـن عينـاً عينـاً.

علقـت صـور الأشـعة فـوق الصوتيـة فـي سلسـلة براويـز أنيقـةٍ علـى جـدار الغرفـة التـي بـات غانـم يدخلهـا يومـاً إثـر يـوم، ليقـف علـى رؤوس العمـال وهـم يعـدون الغرفـة لتليـق بثمـرة الصبـر

الثمينة هذه. بينما انهمكت أنا في إيقاظ هدايا غانم الهاجعة على الرف. كتب لم تمسسها يدي، ولا طافت بها عيني، منذ تخلى رحمي عن المضغة الأولى إلى هذه اللحظة. جعلت أقرأ الصفحات قراءة حثيثة، ثم أسكب ما جنيت في قلب غانم، شريك روحي الذي وسع صبره كل إعياء خاضته نفسي وصدّق عليه جسدي.

باغتني ألم، فطوى غانم الطرقات طيّاً؛ يضع يده عليّ تارةً. تعانده ابتسامة أبت أن يستر بها قلقه، فلاذ بإطلاق طويل لبوق السيارة.

ـ إن كان ذكراً أسميناه سالم.. وإن كان بنتاً فسمّيها أنت.

ثم طفق يشوّح بيديه للسيارات الثقيلة حيناً، ويزأر على سائقيها أحياناً أخرى.

ـ ليتك لم ترفضي معرفة جنس الجنين.

غانم هو غانم. فها هو ذا يفقد صوابه في سبيل تهوين الأمر عليّ.

ـ ستعرفه قريباً.

ـ نعم.

في غرفة الولادة، غانم يقف على رأسي يلفّه لباس طبي

بلـون صفـاء السـماء، يمسـح عـن جبينـي سـيل العـرق، وعـن وجنتيـه تتدحـرج الدمـوع، ويتمتـم. بينمـا أنـا مطبقـة علـى يـده الأخـرى. ضيقـةٌ كالقبـر هـذه الغرفـة الصامتـة إلا مـن ضجـة الأجهـزة، وأوامـر القابلـة، ورنيـن أدواتهـا الطبيـة، والوقـت الـذي يأبـى المضـيّ، وأنينـي.. وفقـط!

حفيـف الطاقـم الطبـي يتدافـع مـن خلـف البـاب. وعلـى مرمـى مـن عينـي تحلقـوا حـول ابنـي المسـجّى فـي مهـد المواليـد الزجاجـي.

ـ أين صرخة الحياة؟

وخلفهـم كان غانـم المبلـل اللحيـة يذهـب فـي توتـر ويجيء. بينمـا يـداه تتنقـل إحداهمـا بيـن سـدّ فمـه، وتوسّـد خـده. وتقبـض الأخـرى تـارةً علـى ثيابـه، وتـارة تسـاند أختهـا فـي قبـض رأسـه.. لمـاذا تصـمّ حركـة الأشـياء مـن حولـي أذنـي؟ اصمتـوا. أريـد سـماع صرخـة الحيـاة.

ـ غانـم، أسـكتهم. أنـا لا أسـمع صراخـه! غانـم.. غانـم.. أيـن طفلـي؟

أقبـل عليّ غانـم. ضمّنـي، وهوينـا معـاً فـي بـكاءٍ دامـسٍ كافـح غانـم ظلامـه بالحوقلـة بيـن الحيـن والحيـن.

امرأة بيضاء.. رجل خمري

يأتي صياح ديك من بعيد. يتسلل إلى أعطاف لحافها؛ تتقلب، تتمطى، تفتح عينيها، تفركهما، تتثاءب، تنظر إلى الساعة الملقاة بجانبها.

ـ لا يزال أمامي متّسع من الوقت. حان وقت التسوق. صباح الخير يا أنا...

ترفس اللحاف من فوقها كالطفل العنيد، تجلس على حافة السرير، تتصل بخدمة الغرف، تطلب فطوراً، وتستكثر. يتسلل إليها من حطام الذكريات صوت سحيق:

ـ لا.. لا.. لن تأكلي هذا الصنف. ولا داعي لهذا المشروب أيضاً، سأطلب لك صنفاً آخر؛ قوامك! سأحافظ لك على قوامك، هذا من حقي أنا فقط.

ترتـدي ثوبهـا العنّابـي المنقّـط، تلـف وشـاحاً أبيـض حـول عنقهـا، تقلـب زجاجـات عطورهـا.

ـ نعـم، هـذا.. لا.. لا.. هـذا العطـر لا يليـق بـك بعـد الآن؛ أيـن سـلّة المهملات؟

تغمـر نفسـها بعطـر تستنشـق عبيـره بعمـق، وتطلـق ضحكـة. تنتعـل كعبـاً أبيـض يشـوب بياضـه خـط وحيـد، عنّابـي. تتنـاول نظارتهـا المؤطـرة بالبيـاض، تتمنطـق بحـزام أبيـض، تتنـاول قبعـة صيفيـة بيضـاء تحيطهـا مـن الأعلـى زهـور اصطناعيـة بيضـاء وعنابيـة، تقـف أمـام المـرآة، تنظـر إلـى تفاصيـل أناقتهـا، تتبسـم.

ـ أين كنت تخبئين كل هذا الجمال؟

ثم تتبسم.

من غمرة فرحتها سرقها صوت عميق بعيد:

ـ لسـت أدري مـن منكمـا يليـق بالآخـر؛ الثـوب أم أنـت؟ كـم أحـب هـذا اللـون عليـك!

زمّـت شـفتيها، نفضـت رأسـها، وتأففـت. خرجـت غيـر مباليـة بحجـم الفوضـى التـي خلّفتهـا علـى السـرير.. علـى الأرض.. فـي الحمـام، وفـوق الطاولـة الممتلئـة ببقايـا اللذائـذ.

تطلب السيارة المكشوفة المستأجرة. تنطلق، وخلفها يتبدد تيار من الألحان. تتبسم، تغني، تقرأ بنهم كل تفاصيل الطريق؛ الإسفلت المتشقّق، أعمدة الإنارة المنكسة الرؤوس، واجهات العمائر المتعجرفة، الأجساد المتساقطة على كراسي المقاهي، رائحة الخبز والقهوة، الأشجار الشعثاء... وتلتقط ما تطاير من رائحة العشب المسفوح.

ـ وداعاً يا كلّ هذه الأشياء.

تلج إلى المركز التجاري، ترفرف بين محلات الملابس، تتأمل الواجهات، تلتفت إلى فستان هنا، وتتأمل قميصاً هناك، وتفكر، وتشتري هذا، وتجرب مقاس ذاك، تنظر إلى الساعة بين الحين والآخر.. وفي آخر المطاف استقرت عند واجهة مغرية لمحل كبير، ومضت تتفحص الأقمشة. تمرر أناملها المشذبة الأظافر على قطعة هنا، وتقرب أخرى من خدها.. وتتبسم.

ـ مرحباً سيدتي. كيف أخدمك؟

ـ مرحباً، أحببت ما لديكم.

ـ يسعدنا هذا سيدتي، لدينا المزيد، ربما يعجبك أيضاً.

ـ أوه، حقاً؟ خذني إليه إذاً.

ـ أمرك، من هنا سيدتي، تفضلي، هذه تشكيلتنا الجديدة، وصلتنا أمس فقط.

تضع يدها على صدرها، تهدئ من تصاعد الأنفاس فيه، ترمش، تدوّر مقلتيها يمنة ويسرة.

ـ لا لا؛ هل من لون آخر غير هذا؟ تبدو التصاميم بهذا اللون قبيحة، شكراً.

خرجت من المحل إلى مواقف السيارات وهي تتمتم:

ـ لا أريده.. لا أريده في ثيابي، ولا حتى في حذائي، فليشبع وحده باللون الخمريّ. فليلوّن به حتى أسنانه!

وانطلقت خارجة من المركز التجاري، بلا موسيقى، بلا صخب.

تجذبها واجهة بيضاء عريضة هادئة يغلب عليها لون أبيض مطعم بنقوش ناعمة من لون بنفسجي. تتلاقى نقوشه في استدارات مورقة تتدرج بين الداكن منه والمشرق. نعم هذا ما تحتاج إليه الآن. لا يزال في الوقت سعة؛ تدخل، تطلب خدمة تشذيب الأظافر، تلقي بنفسها على أحد الكراسي البنفسجية الدافئة، وتغوص عميقاً في البياض الطاغي على الجدران والأرضية بسلام. يتسلل من بين أسمال الذكريات صوت؛ الصوت ذاته:

ـ أنت ملكي. أتفهمين؟ ملكي. هذا أفضل لون في الكون، ولن ترتدي إلا هذا، وإلا...

ـ حسناً سيدتي.. حان وقت اختيار الألوان.

ـ أريد لوناً جديداً. مختلفاً. أريني أحدث ما لديكم من طلاء.

ـ تفضلي، هذه باقة الألوان الأكثر طلباً سيدتي. وهذه مجموعتنا الكلاسيكية.

ـ حسناً، دعيني أرى تلك المجموعة مرةً أخرى؟ نعم، هذا من فضلك.

تنظر العاملة إليها، تقرب اللون المختار من أظافرها.

ـ هذا اللون يا سيدتي؟

ـ نعم، انتظري، أجل، هذا، هذا.

ثم تسللت ذكرى أخرى:

ـ لكني لا أحبه.

ـ المهم أنا أحبه.

ـ يا لجمال هذا اللون على أصابعك!

نفضت يدها. فلتسقط عن باطن كفها وظاهره كل تلك القبل التي كانت تتبع مثل هكذا جملة.. جفلت العاملة فتلطخت أصابعها بالطلاء.

تدخل غرفتها الوثيرة، تضحك باستخفاف، يبدو المكان وكأنه أعيد ترتيبه بالمسطرة، ترمي بالأكياس المعلقة بساعديها على السرير، تطلب من حامل الحقائب المحمّل بالمزيد من الأكياس أن يضعها أينما اتفق، تدس في يديه مبلغاً ليس بالقليل، يتركها لاهجاً بالشكر، تنظر إلى الساعة مجدداً، تأخذ حماماً سريعاً، تقفز فوق كومة الأكياس على السرير، وتضحك بابتهاج.

تتناول الهاتف، تلتقط صوراً لكل تلك الروائع التي اشترتها؛ الملابس، الأحذية، الأوشحة، القبعات، والبروشات... ولقطة لأظافرها المطلية المشذبة، ترسل الصور إلى بثينة صديقة روحها، تنظر إلى الساعة، تعيد لملمة كل شيء، وترتبه في حقيبتين كبيرتين.

يرن الهاتف..

ـ ألو.

ـ مرحباً، أهلاً، أهلاً بثينة. كيف حالك؟ الحمد لله. سأنطلق إلى المطار بعد قليل، أمامي ساعة وزيادة، نعم، نعم، أنا بخير.

أجل، متأكدة. لم أكن بخير منذ زمن أنت تعرفينه، لكن الآن، كل شيء على ما يرام. فقط اشتقت إليك. هاهاها. أعرف أنها أيام معدودة. هل شاهدت الصور؟ كلها؟ حسناً. أنا بخير يا عزيزتي، فلا دموع بعد اليوم. ما العلاقة بين سلامتي والصور؟ أردت أن تتعرفي على ذوقي. مضى دهر منذ كان لي ذوق يخصني. أوه. المهم. ماذا بك؟ نعم، نعم، أنا بخير. سعيدة. منطلقة. نعم. أعيش راحة لم أذق طعمها منذ ست سنين. أنت تعرفين كل الحكاية! وأنت من نصحني بالسفر. ها أنذي أستمتع بوقتي حتى آخر رمق؛ أستكشف العالم من حولي، أتبضع من دونه، ليتك كنت معي، الصور! ما بها؟ لكنها!

تصمت طويلاً، والهاتف على أذنها، وهي جالسة على حافة السرير تحملق في الحقائب، تغلق الهاتف، تقاوم تصاعد العبرة إلى حنجرتها، تربض أمام الحقائب، تفتحها جميعاً، تخرج الأشياء منها، تتأملها قطعة قطعة، تتقاطر الدموع في حجرها، تذهب إلى المرآة، تكتم بكلتا يديها شهقة حارقة، تتشمم ثيابها، وتنخرط في عويل طويل.

تحدق من خلف ستائر الدموع في أظافرها، تزيح الستائر برمشات من أجفانها، تتمعن، تؤرجح رأسها الثقيل يمنة ويسرة.

ـ خمري؟! خمري؟! لماذا؟ لماذا لا يزال هذا الرجل هنا؟

غفوة

يختلط صوت أبواق السيارات بضجيج الرعد، تسري باقة الأصوات تلك في عنفوان الليل إلى الأزقة الرطبة البعيدة، حيث كان يلملم ثيابه المتسخة، ويشدها حول نفسه وهو قابع تحت سقف صندوق كبير من الكرتون ألهبته الشمس، فبهت وتقشر.. ليت الشمس الآن تهش كل هذا السحاب، تجفف كل هذا الماء المتكاثر فوق هذه الأرض، تطفئ هذا الذي يسطع بين الحين والحين.

ـ هيا، نم، هيا، سأنام، وسيذهب البرد.. سيسكت الصوت، سينطفئ الضوء، سأنام.

لا يدري من أين جاءه النعاس، والشمس لم تستجب بالأمس لأمنياته، بل اكتفت بمدّ سياطها نحوه مع بواكير الصباح فأيقظته.

جرى عبر الزقاق الرطب إلى الشارع يتلمس المزيد من تلك السياط، موقظاً في طريقه كل تلك البرك الغافية في حفر الزقاق وتعرجاته، منتعلاً حذاء ضاحكاً. توقف قليلاً، رفع بصره المغبش إلى السماء، دار حول نفسه مستعيناً بالجدار البارد للعمارة القريبة الشامخة.

ـ آخ؛ كل شيء بارد، أين أنت أيتها الشمس؟

حجب ضوء الشمس الساطع بذراعيه عن عينيه، التقط أنفاسه، مدّ ذراعيه موازياً الأفق، وكأنه يهم بالطيران. عبّ الهواء حتى انتفخ صدره.

ـ مرحباً أيتها الشمس، لماذا لم تستجيبي لطلبي بالأمس؟ هاه؟ شكراً على هذا الدفء الآن. ولكن لن تغلبك السحب اليوم. هشّيها من أجلي، أرجوك.. شكراً.

يقف على الرصيف، يتدفق الناس من حوله جيئة وذهاباً، يبتسم، ينفض ثيابه، ينفض شعره، يحدق في تلك الوجوه المتوترة، يتلفت، يحملق في البنايات الشاهقة حوله، مد يده.

ـ صباح الخير، مرحباً، أنا جائع وأريد الذهاب إلى الحمام.

وضع كفيه على خصره، زفر بحرقة، نظر إلى الأرض؛ إلى

أصابع قدميه المستظلة بحذاء استسلم غراؤه للمطر، فكشر عن أصابع مكسوة بشراب كان أبيض.

ـ أوه، انظروا ما حل بالشراب!

جعل يحرك أصابع قدميه، فاستسلمت فردة حذائه الأخرى للدغدغة فقهقهت. ضحك حتى ضرب الأرض بكفه، بينما سكنت كفه الأخرى على بطنه الذي أوجعه. صرخت امرأة وهي تهوي من فوق ظهره المنحني على وجهها. نهض بعد انقلابه على ظهره، وجرى مسرعاً نحو الهاتف المنزلق من بين أصابعها؛ التقطه، تأمله، ثم مسحه في ثيابه، وقفل عائداً إلى المرأة ماداً إليها يده بالهاتف، ثمّ ردّ يده، ومد إليها يمناه مصافحاً.

ـ أنا جائع، وأريد التحدث إلى أمي.

أخذت هاتفها من بين يديه عنوة، نهرته.

ـ هات الهاتف، اذهب بعيداً، لا تقترب أكثر، اذهب.

سد أذنيه بباطن كفيه، تراجع خطوات إلى الوراء، وعيناه المغرورقتان تتنقلان مستجديتين بين الهاتف ووجه المرأة وذراعها المنبسطة.

ـ أبي أحضر لي هاتفاً في عيد ميلادي، أمي أخذته لتعيد

شـحنه، هـي تعـرف أنـي شـجاع، تقـول لـي دائمـاً: أنـت شـجاع. أمـي تخـاف مـن الكهربـاء، وأنـا جائـع.

ـ من فضلك.

ـ أنـتِ لسـتِ إنسـاناً جيـداً، تقـول أمـي: إن الغضـب ليـس جيـداً، الغاضبـون أنـاس سيئون، أنـا لسـت سـيئاً، أنـا جائـع وأريـد الذهـاب إلـى الحمـام.

نكـس رأسـه، فتسـاقطت قطـرات مـن دموعـه، أدار للمـرأة ظهـره، ثـم مشـى مبتعـداً، بينمـا تعلقـت عيناهـا بـه، ويدهـا الممسـكة بالهاتـف الذكـي علـى صدرهـا، والأخـرى علـى جبينهـا.

ـ هيه أنت.. أنت.

ـ أنتِ إنسان سيئ، ستغضب أمي إن تحدثت معك.

ـ مـن أنـت؟ لمـاذا أنـت هنـا؟ أيـن أمـك التـي تتحـدث عنهـا طـوال الوقـت؟ مـن أيـن جئـت؟

ـ...

مـن بيـن الجمـوع يتسـلل صـوت يناديـه؛ ينتبـه، يلتفـت يميناً ويسـاراً، يولـي المـرأة ظهـره، ويسـرع الخطـى باتجـاه الصـوت.

يصطدم في سعيه بالكثير من الناس، يضحك بشهقات متتالية، يقفز، يسرع الخطى، يتصايح الناس من حوله...

ـ هل أنت معتوه؟ هل من إنسان عاقل يجري وسط هذا الزحام؟ معتوه...

ـ هيه لقد سكبت قهوتي.

ـ قل آسف على الأقل!

ـ ما قلة التهذيب هذه؟!

يستمر في سعيه. يخيل لمن يراه أن لا أحد يدبّ على هذا الرصيف سواه. يمد يده، يضع يده على بطون البعض من المارة فيزمجرون، يضربون يده، يعاود وضع يديه على أذنيه، يجري نحو الخيال الذي توقف عن المناداة، يقترب، يقفز في بركة ماء بحذائه الضاحك، وهو يدور حول نفسه، ويطوي ساعديه على جنبه، ويضم قبضته.

ذاك الخيال البعيد ركع، ثم استقام، ويده على خصره، والأخرى على رأسه. مشى نحو القافز في بركة الماء، وقف أمامه، نظر إليه وخليطٌ من الفرح والحزن يتدافعان في سيلٍ من الدموع التي أغرقت وجهه، فجثا وانتحب. تحامل على نفسه حتى عاود الوقوف.

ـ سالم، حبيبي، سالم.

ـ حذائي يضحك، أنا جائع وأريد الذهاب إلى الحمام.

ـ حسناً يا حبيبي، سنذهب إلى الفندق، منذ الأمس لم يغفُ أيٌّ منّا. ليتنا لم نغفُ على كراسي البهو، كان عليّ أن أظل مستيقظاً مهما كلف الأمر، سامحني يا حبيبي، لو علمنا أنّك بالقرب من هنا لما انتظرنا الشرطة، ولما انتظرنا كل هذا الوقت! أمك في انتظارك، سنأكل بيضاً.

وضع سالم كفه على فم أبيه، قبّل الأب كفّه، ثم قبض عليها بشدة حنون.

ـ أريد الذهاب إلى الحمام، أحب البيض.

ليلة

تتسلل الأهازيج المكتظة بالضحكات من حوش بيت أم سعيد مصافحةً حسيس النار تحت القدور الراسيات في ركن قصيٍّ ملاصق لسور البيت من الداخل، ثم تقفز خلف السور، لتتبدد وسط صيحات الرجال، وانسياب السكاكين الحادّة على نحور الخراف وأجسادها. وتعود سريعاً لتنفض الضجر بحناجر النساء المنهمكات في غسل العيش[1] وحب الهريس، وتقليب البهارات في المحاميس[2]، وتقطيع الخضار، ومسايرة رتم الغناء بالمناحيز[3] المكتنزة بالثوم والبهار المحمص والقهوة.

روية في غرفتها المحظورة إلا على أمها وبعض القريبات، تحيط بها صويحباتها، يساعدن العجافة[4] في تجهيز روية. يتبادلن استنشاق المخمريات[5] المرصوصة على الميز[6].

تعلق إحداهن على واجهة الكبت[7] كندورة[8] خضراء موشاة بالزري، وثوباً مذيلاً مطعماً بالتلّي[9].

تتوسط روية الشبرية[10] الخشبية ذات الستائر الرقيقة المرفوعة خوفاً من أن تتلطخ بالنيلة سأماً من اللون الأبيض، أو أن يسكرها عبق الورس[11] فتسقط متضمخة به، أو أن تغار من حمرة كف روية فترسل أطرافها عنوة لطاسة[12] الحناء.

ترمق روية الكندورة المعلقة بخوف خفي. تنظر إلى ما استخرجته صويحباتها المتضاحكات من مندوس الذهب. تضع إحداهن الطاسة على رأسها، وتنعش[13] بها بحذر، وتتنقب أخرى بالمرتعشة، وترمش، ثم تغمز لروية. تتوشح غيرها الحزام، وكأنّها تعلق بين طرفيه جراب سيف تخرجه من غمده وترزف[14]. تضع اثنتان منهنّ أساور بوشوك[15] في منتصف قبضة يدها، وتضرب بإحداهما الأخرى.

تراقص أهازيج العيالة نسائم المساء، في تناغم يتناهى إلى مسامع روية وصويحباتها، فيتمايلن بسلام لا يعكره سوى دويّ طلقات نارية يكاد لا ينقطع. وسط رزيف الرجال وتمايل عصيّهم المتوحد المنتظم يتهادى سيف بقامته الشامخة، بعقاله المائل على جبينه يساراً، ببشته الأسود، يتمنطق خنجراً يتلاقى في نقوشه الذهب بالفضة، ويطل

مـن خلـف مقبضـه يميناً مقبـض فضـي تملـؤه الزخـارف لسـكين صغيـرة. يشـهر سـيف سـيفه المذهـب. يضـع نصلـه غيـر الحـاد خلـف عنقـه. يحيـط بـه اليويلـة مـن أصحابـه؛ إخوتـه وأقاربـه. يمشـي البعـض خلفـه، والبعـض بموازاتـه، ويرفـع كل منهـم مـا فـي يـده عصـا، سـيفاً، سـلاحاً، مجاريـاً سـيف فـي رزيفـه، وهـم يمازحونـه، يتبسـمون لـه، وهـو يكـزّ علـى أسـنانه متشـبثاً بالرزانـة. إنـه العريـس.

تتـراص النسـاء بأثوابهـنّ الجديـدة، وبامتـداد مـا فـرش فـي الحـوش مـن حصـر وزوالـي[16]. تصـدح أفواههـنّ بالـرد علـى الأهزوجـة وإطـلاق الزغاريـد. تصفـق كفوفهـنّ المخضبـة بالحناء فـي حمـاس يقـوده حمـاس قارعـات الطبـول اللواتـي يقدحـن بمهارتهـن شـرارة الرقـص، فتتراقـص الحاضـرات فـي مكانهـنّ طربـاً، وترقـص الفتيـات الصغيـرات أمامهـنّ جيئـة وذهابـاً، أزواجـاً وفـرادى. يـزداد الحـوش اشـتعالاً بالزغاريـد حيـن تقبـل رويـة، تزفهـا صويحباتهـا. يثقـل الخجـل رأسـها فينكسـه، وينشـر حمـرة الخجـل علـى وجههـا المحتمـي ببرقعـه الأول.

نئيـم مزمـار الليـوا يأتـي متسـللاً عبـر السـكيك[17] مـن بعيـد. يدفـع طفـل البـاب راكضـاً مبشـراً بقـدوم الزفـة. يضـج الفضـاء بالزغاريـد. تؤخـذ رويـة إلـى غرفـة المعاريـس. يـزداد قـرع قلبهـا خطـوة بعـد خطـوة. توضـع علـى الشـبرية. ترتـص صويحباتهـا

حولها. وتتربع على الدوشق[18] مستندةً إلى التكي[19] كل من لم تسعها الشبرية منهن. وروية في طأطأتها. تفرك مراميها[20] وشواهدها[21] والجباير[22]. يزداد النئيم علواً. تطل بعض النساء من الأسطح. وبعينٍ واحدة من خلف الأبواب تترقب الأخريات، ويرقص البعض الآخر خلف الأبواب ويزغرد.

يصل سالم من البحرين قبل الزفة بقليل؛ يسرع إلى البيت، يستحم، يرتدي ثوبه الجديد، يشد محزمه[23] على خصره، يمسح دهن العود الهندي المعتق خلف أذنيه، وعلى أرنبة أنفه، يتعمم، ويشد الخزام[24] المفضض حول عمامته، يتناول سلاحه، ينظر إلى هندامه في المرآة، يبتسم، يحدث نفسه:

ـ «بتتزوج من دوني؟ أفا، وين الصداقه عيل ها؟ وراك وراك»..

يحشو قدميه في نعليه النجديتين، ويطلق للريح ساقيه.

تدخل فتاة مسرعة عبر باب غرفة المعاريس، تبشر بقرب وصولهم، تتقاطر الفتيات خارجاتٍ من غرفة المعاريس، تجلس أم روية بجانبها، تتأمل ابنتها، تمسح على رأسها، وتقاتل الدموع في عينيها، تسر إلى روية حديثاً، وهي في طأطأتها، تهز رأسها بإيجاب، وتخضب ظهر البرقع بالدموع، تضمّ أمها رأسها إلى صدرها، تقبله...

وتدوي طلقة..

ساد لبرهة وجوم سحيق، ثم انبجس صراخ مرير..

تعثّر سالم أمام الزفة، والسلاح في يده، فاستقرت منه طلقةٌ في قلب سيف.

❋ ❋ ❋

الهوامش

1. العيش: الأرز
2. المحاميس: جمع محماس، وهي آنية للطهي.
3. المنحاز: أداة للطحن، وهي عبارة عن قضيب ووعاء أسطواني عميق يصنع من النحاس أو الخشب.
4. العجافة: أو العكافه هي الماشطة، وتماثل الكوافيرة في الوقت الحالي.
5. المخمرية: عطر نسائي يستخدم على الجسد.
6. الميز: طاولة بأبواب عن اليمين واليسار، مع درج في الوسط.
7. الكبت: خزانة الملابس.
8. الكندورة: الثوب.
9. التلي: نسيج تصنعه المرأة بخيوط قطنية، ونوع آخر من الخيوط يسمى الزري يستخدم لتزيين ملابس النساء الإماراتيات قديماً وحديثاً.
10. الشبرية: السرير.

11. الورس: عشبة تخلط بماء الورد تستخدم لتجميل العروس.
12. الطاسة: وعاء.
13. تنعش: النعش هو فن تراثي تؤديه البنات، بتحريك رؤوسهن إلى اليمين واليسار، وشعورهن منسدلة.
14. ترزف: الرزيف يطلق على رقص الرجال في الرقصات الشعبية.
15. بوشوك: أساور تراثية من الذهب.
16. الزوالي: جمع زولية وهي السجادة.
17. السكيك: جمع سكة.
18. الدوشق: يلفظ أحياناً: دوشك، وهو المرتبة.
19. التكي: مفردها تكية، وهي مخدة كبيرة محشوة بالقطن توضع في مجالس البيوت القديمة.
20. المرامي: خواتم من الذهب تلبس في الإصبع الوسطى.
21. الشواهد: خواتم من الذهب تلبس في السبابة.
22. الجباير: خواتم من الذهب تلبس في الإبهام.
23. المحزم: حزام يصنع من الجلد، ويزين بخيوط الفضة أو الخيوط العادية، يستخدم لرص رصاص البندقية.
24. الخزام: حبل يغزل من الصوف يشده الرجال على عمائمهم قديماً لتثبيتها، ويعمد الميسورون منهم إلى تزيين أطرافه بسلاسل فضية.

كان حبيبي

– مريم.. مريم..

تزيح مريم عن رأسها اللحاف، تفتح عينيها رويداً رويداً، تتمطى، تتثاءب..

– خيراً؟

– وقع حادث لأم خالد أمس وهم عائدون إلى بيتهم.

– حسناً؟

– توفي خالد.

– حسناً؟

ساد الظلام الدامس، صمت غبي، أم مريم تجلس على حافة السرير، تعض على نواجذها، تضيق الخناق على ما وقع تحت قبضتها.

ومريم على رأس السرير، تلملم شعث شعرها، تشد اللحاف إلى أسفل ذقنها، تنظر عميقاً في الظلمة الدامسة.. شيء ما يهرب منها عنها.

ـ حسناً...

نهضت من مرقدها، أشعلت مصباح الأباجورة، تناولت روب الحمام.

نهضت أم مريم من جلستها مجعدة الجبين، يدها على صدرها، ودمعة تتماوج في عينيها. دارت قليلاً حول نفسها، وقفت أمام باب الحمام، طرقت الباب، استرقت السمع.. لا صوت خلف الباب سوى لتساقط الماء.

ـ مريم.. مريم.. هل أنت بخير؟

توقف صوت الماء. فتحت مريم الباب.

ـ أنا بخير، سأذهب للعمل.

ـ تذهبين للعمل؟

ـ نعم، سأذهب للعمل.

ـ حسناً!

تهمّ أم مريم بالخروج من الغرفة، يعاند وجهها المصوب

نحو مريم قدميها المتجهتين إلى الباب، تحرر قلبها من بين ضلوعها، ورفرف نزقاً حول مريم.. إنها حقاً تستعد للذهاب للعمل! ألم تسمع ما قلت؟ لم تصرخ. لم تقل أي شيء، لم تنزل من عينها حتى دمعة! هل سمعتني؟ هل أعيد الكلام عليها مرة أخرى؟ هل هي صاحية؟ واعية لما قلت؟ يا رب.. ما بها ابنتي؟

صفق الباب خلف أم مريم صفقة ردت إليها قلبها فزِعاً.

***

وقفت مريم أمام مرآتها الطويلة تنظر إلى هندامها، قوامها. تمسح على وجنتيها، تناولت زجاجة عطر.

ـ ثقيلة هذه الزجاجة اليوم.. لا أستطيع حتى رفعها إلى عاتقي.

تناولت مفاتيح سيارتها ونزلت تطوي السلالم طياً.

خلف النافذة تقف أم مريم، يدها تارةً على فمها، وتارة على صدرها.

ـ استر يا رب!

***

تطبق مريم بكلتا يديها على مقود السيارة. صوت ملأ بوتيرة متسارعة رأسها حتى فاض على شفتيها تمتمت ورأسها يتأرجح يمنة ويسرة:

ـ مات.. مات..

تفجر صدر مريم بالشهقات الحارقات، بين كل زفير منها وشهيق تخرج:

ـ (مات)..

تخور قواها. يثقل كل شيء فيها، تتداخل ملامح الطريق في لجة دمعها السكيب، تتوقف على كتف الطريق، تنخرط في نحيب مكتوم، تضرب بيدها الثقيلة على صدرها المختلج، تترجل من السيارة، يثقلها الكتمان حد الركوع، ثمّ تنهض. يرتفع صدرها وينخفض طلباً لمزيدٍ من الهواء، تعود متعثرة الخطى إلى السيارة وتكمل الطريق.

***

تصحو أم خالد، جمع غفير يملأ فضاء الغرفة حولها، رؤوس كثيرة تحدق بها.

تسأل عن خالد، تتألم، ترتبك تلك الرؤوس، وتشيح بأنظارها بعيداً عن عينيها. يتلفت البعض، يغمض البعض

الآخر عينيه، ورهيف القلب منهم يغادر الغرفة، ويسح في إحدى زوايا الممرّ دموعه.

تستجمع إحداهن ما استطاعت إلى جمعه سبيلاً من شجاعة، تضع عينيها في عيني أم خالد بعد هروب طويل، تمسك بيد أم خالد، تضمها إليها. تمسح على رأسها، تزحزح ركام البكاء بحمحمة عن حنجرتها.

ـ الحمد لله على سلامتك حبيبتي، خالد موجود، وضعوه في غرفة مجاورة، ارتاحي فديتك.. ارتاحي.

ـ الحمد لله.. الحمد لله.

تتشبّث أم خالد بتلك اليد الحنون، تطوي إلى الداخل شفتيها، تقاوم اندفاع ذاك السؤال:

ـ لم يبدُ بخير حين شاهدته آخر مرة، لم يبدُ بخير.

وتنهمر الدموع من عينيها.

في الممر يتحلق إخوة خالد وذووه حول الطبيب، يقفون برؤوس منكسة، يقتلون الدمعة على نواصي أجفانهم، وينخرطون في بكاء أبكم.

ـ أرجوكم، احرصوا على ألا يخبرها أحد بشيء؛ على

الأقـل حتـى نطمئـن إلـى اسـتقرار حالتهـا، هـي بخيـر إن شـاء اللـه، ولكـن الحـرص واجـب.

تهتز الرؤوس مستجيبة لتعليمات الطبيب.

***

سـحبت مريـم جسـدها مـن بـاب السـيارة، كل شـيء تنظـر إليـه حولهـا بـدا متماوجـاً متمازجـاً. كل شـيء حولهـا يهمـس ينطـق:

ـ (مات).

السـيارات المتراصـة، رصيـف الشـارع، الأشـجار.. حتـى حـارس البوابـة كان يقـول ذلـك مبتسـماً.

تسـاقطت مريـم فـي حضـن شـمّا فـوراً، وتفتحـت كل مصاريـع الألـم فـي قلبهـا، وغـارت فـي بـكاء عميـق طويـل كان لشـما منـه نصيـب، وللكنبـة السـوداء الطويلـة التـي تهاوتـا عليهـا نصيـب أيضـاً.

ـ بسـم اللـه عليـك.. لا إلـه إلا اللـه.. أمـك أخبرتنـي.. اللـه يصبـر قلبـك.. لا إلـه إلا اللـه.

انبعثت مريم من حضن شما.

- إلى أين ستذهبين مريم؟ دعيني أوصلك. أمك أوصتني بألا أتركك.. مريم.. مريم..

- إلى المستشفى.. سأذهب.. سأذهب شما.

***

تكالبت أخوات خالد المضرجات بالدموع على مريم في الممرّ، تطوقها الصغرى من خصرها تعانقها. والأخرى ترمي بثقل رأسها على كتفها.. ومريم جافة العينين، مطبقة الشفاه تمضي في مسيرها نحو أم خالد كجبل جليد يجرفه نهر زاحف.

تدلف من الباب الموارب، تتوغل بين الأجساد المنغرسة في كل شبر متاح من مساحة الغرفة، في اللحظة ذاتها التي يمسك فيها أبو خالد بيد زوجته ويهمس في أذنيها؛ يقبل رأسها، ثم يجلس على الكرسي الوحيد بجانب السرير. دفن عينيه في طرف غترته الرطبة، وحوقل.

ثمّ يأتي صوت أم خالد محملاً بالألم:

- أين مريم؟ أين هي؟ هل أخبرتموها. أخبروها. أحضروها إليّ الآن.. سأخبرها أنا.. نادوها.

وقفت مريم وثقل الأرض على عاتقيها، خطت نحو سرير

أم خالـد مبتـورة الـروح، خائـرة الإحسـاس. ارتمـت علـى أم خالـد، واشـتعلتا معـاً فـي عويـل.

تبـادل الآخـرون النظـرات، وأطلـت الأسـئلة علـى شـفاههم، وإن ظلـت مكتومـة بـلا صـوت.. مـن هـذه؟ لمـاذا طلبتهـا بالاسـم؟ مـا كل هـذا البـكاء؟

جعلت أم خالد تتشمم مريم، وتتلمسها.

ـ يا الله.. يا رائحة حبيبي.. يا الله يا خالد.. يا الله صبرنا.

نزعت إحداهنّ مريم من بين يدي أم خالد.

ـ يكفي بكاء، لا تتعبيها، دعيها ترتاح.

***

يتقاطـر المعـزون مـن كل حـدب؛ الرجـال يقفـون مـع الرجـال فـي الممـر، النسـاء يتسـاءلن عـن أم خالـد وبناتهـا، يتلقفـن أخوات خالـد الواقفـات عنـد بـاب الغرفـة بالأحضـان، بالطبطبـة، بمسـحة رأس، يمطـرن رأس أم خالـد بالقبـل، وبذكـر اللـه، ومحامـد الصبـر.

مريـم تلملـم نفسـها بعيـداً عـن يـد أم خالـد وأنفهـا، وعـن النسـاء اللواتـي إن التفتـت إحداهـن إلـى وجودهـا، رمتهـا بنظـرة

غريبة. جرجرت مريم الكرسي بعيداً، نظرت إلى الجموع، لا أحد يشد على يدها، لا أحد يمسح على رأسها، أو يحتضنها، لا أحد يمطر رأسها بالقبل، وذكر الله، ومحامد الصبر.

لا أحد.. فهذا الذي مات كان حبيبها.. فقط.

ـ هذا الذي مات.. كان حبيبي.